

## نصوص من الحديث النبوى

### ١ - الحرية المقيّدة:

قال رسول الله - ﷺ -:

"إن قومًا ركبوا في سفينة فاقسموا<sup>(١)</sup>، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له: ما تصنع؟ قال: هو مكانى أصنع فيه ما شئت. فإن أخذوا على يده<sup>(٢)</sup>؛ نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا".

"أخرجه البخارى"

### التحليل:

١ - النظرة الأولية في هذا الحديث، تريك قومًا راكبين سفينة، قسموها فيما بينهم، فصار لكل منهم موضعه الخاص به، وحسب رجل منهم أنه حر يصنع بموضعه ما يريد، فأخذ ينقر في موضعه بفأس، يريد أن يحدث ثقبًا فيه لعله يشرب، أو لئلا يؤذى غيره بالمرور في موضعه - كما تفيده رواية أخرى للحديث - أو لمجرد الرغبة في إثبات حرّيته في ملكيته، وكما تفيده هذه الرواية، ونظر القوم إليه وهو ينقر، وسألوه عما يصنع، فأجابهم أنه مكانى وأنا حر أصنع به ما أشاء. ويعقب ﷺ على موقف القوم من صاحبهم قائلاً: إن منعه -

(١) قسموا أجزاء السفينة فيما بينهم.

(٢) منعه من النقر الذى يثقب السفينة.

ولو بالقوة - أنجاهم عملهم وأنجاه، وإن تركوه يثقب السفينة، أهلكه عملهم وأهلكهم.

٢- والنظرة الثانية - قليلا - تضع هذا الحديث بين القصص الرمزي الذي لا يهدف إلى مدلولاته الظاهرة وحسب، وإنما يتعداها إلى أفكار أعمق منها، بيد أنها تنطلق منه إلى معانٍ أوسع مدى. والأفكار التي يرمز إليها الحديث هي العلاقات المرتبطة بالفرد والجماعة في المجتمعات الإنسانية، حيث إن لكل فرد منافع ذاتية، وممتلكاته الخاصة، ولا ريب أن وجود الأنانية لدى الأفراد تجعلهم يقدمون مصالحهم الخاصة على المصلحة العامة، والحديث يرمي إلى أن الفرد غير مطلق الحرية، وإنما حريته مرتبطة بمصلحة من حواليه من الأفراد الآخرين الذين يعيشون معه في البيئة نفسها، فلو أنه ترك يتصرف حسبما يشاء ربما أضر بنفسه، وألحق الضرر بالآخرين.. فللمجتمع والرأي العام حق الإشراف على تصرفات الأفراد، حتى لا يلحق الضرر المجتمع بأسره، ومن حقهم آنذاك الحجر على تصرفاته ومنعه بالقوة حينما يتأكدون أن تصرفات الفرد ستلحق ضرراً بالمصلحة العامة، وما يعيشه المسلمون في هذا العصر، وخاصة المصريين من فردية الجميع، والأنانية التي أصبحت سمة غالبية، لدليل قوى على صحة ما يرجوه منا حديث الرسول - عليه الصلاة والسلام - آنف الذكر. وقد جاءت صياغة الحديث الشريف في شكل قصصي رمزي. وهذا الذي جعل الحديث يدخل ضمن "الفن الأدبي"، وأقوى في الإيحاء الشعوري وأيسر في الإقناع العقلي من الصوغ التجريدي الذي يبسط الأفكار في صورها العقلية الجافة. فالقصص الرمزي في ذاته تمثيل، واختصار للعموميات، والتمثيل يقرب الفكرة من العقل، كما أن الاختصار يدينها من التصور، وهو أيضاً إيحاء بالمدلول من غير تصريح كما هو تلويح بالفكر من غير إجلاء، ومع دنو التصور وقرب التعقل يشع في النفس جو من الإثارة العاطفية يجعلها تتمثل الفكرة، وتستريح إليها النفس، وتتعلق الصورة وتقتنع بها. وفي التعبيرات الجزئية ألوان من الإيحاء يزيد من الإثارة نحو الفكرة، فمشاهدتك

القوم في سفينة يجعلك تشعر بمعترك الحياة، وأنها بحر لجي تتلاطم فيه الأمواج، وأن التعاون والترابط والوحدة هي المنجاة من خضم الحياة الزاخرة بالمشكلات، كما أن انحصار حياة القوم في سفينة يوحى بإمكانية الرؤية والإحساس بالخطر، فلا يصح أن يؤخذ القوم على غرة. كما أن الرد الذي جاء على لسان الرجل الذي أراد أن يخرق في السفينة خرقاً حتى لا يؤدي غيره أثناء مروره بالماء من أعلى إلى أسفل قائلاً: "هو مكاني أصنع فيه ما شئت" يضع يديك على لون من ألوان الزيف في المنطق، وهراء الحديث وتعمية الحقائق، وإلباس الحق ثوب الباطل، مما يتذرع به الأنانيون الذين لا هم لهم إلا مصلحتهم الخاصة، كما أن قوله - عليه الصلاة والسلام - "أخذوا على يده" يلفتك إلى ضرورة منع التصرف الذي يلحق الضرر بالمجموع، ولو أدى ذلك إلى منعه بالقوة لدفع الضرر العام.

وقد بدأ الحديث بجملة مؤكدة، مع أن الخبر "ابتدائي". والخبر الابتدائي لا يحتاج إلى تأكيد، وإنما الذي يحتاج إلى تأكيد من أنواع الخبر "الطلبى، والإنكارى" بمؤكد أو أكثر من مؤكد وذلك للإيجاء بوثاقة الخبر في مدلوله الرمزي، وإمكانية حدوثه، وسبق المسند إليه في الجملة منكرًا، للإشعار بشيوع الحدث وعدم اختصاصه بزمان أو مكان، فقد يحدث هذا في أى زمان وفي أى مكان. وسيقت عبارات الحديث في أسلوب خبرى، والاستفهام الوارد في الحديث ورد داخلاً في نطاق الخبر، لأنه مقول القول، وهذا يعين على السرّد القصصى، كما أن الاستفهام الوارد فيه لون من ألوان الإثارة ليتقد الذهن ويكون في يقظة والحديث يتأزر بصياغته وإيجاءاته التعبيرية، ورمزيته على إبداء الفكرة والإثارة نحوها وحسن استيعابها.

## ٢ - الطهور شرط الإيمان؛

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله - ﷺ - "الطهور شرط الإيمان والحمد لله تملآن، أو تملأ ما بين السماء والأرض،

والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها".

### التحليل:

الطهور بضم الطاء المراد به "الفعل" الذى هو المصدر - أى: التطهر. أما إذا أريد به الماء الذى يتطهر به الإنسان، فيكون "الطهور" بفتح الطاء. يقول سبحانه وتعالى "وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً" وأمثال ذلك "السحور والفطور والبخور والوقود" قال سبحانه: "وقودها الناس والحجارة" ويقول عز من قائل "وسقاهم ربهم شراباً طهوراً".

شطر: يفتح الشين وسكون الطاء هو "النصف" تقول "شطر الشئ أى "نصفه" وشاطره الشئ أى "ناصفه".

الإيمان: المقصود به: الإيمان الكامل من اعتقاد وقول وعمل.

الصلاة نور يمكن أن يكون ذلك من باب المبالغة على أن الصلاة هى النور بعينه، أو أنها على حذف مضاف والتقدير "ذات نور" أو أنها بمعنى "فاعل"، أى منيرة. يغدو من الغدو وهو الخروج فى أول النهار وهو ضد الرواح. فبائع نفسه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره "هو بائع نفسه" موبقها: مهلكها، وهو اسم فاعل مأخوذ من "أوبقه" بمعنى أهلكه ومثله بقى يبق كوعد يعد، والموبق: مفعل منه كالموعد من وعد - يقول سبحانه: "وجعلنا بينهم موبقاً" وتقول "أوبقه" يعنى أهلكه، واسم الفاعل منه "موبق". وفى هذا الحديث يرشدنا رسول الله - ﷺ - إلى أن التطهر نصف الدين، لأن الدين ينحصر فى أمرين أولهما فعل ما أمر الله سبحانه وتعالى به، وثانيهما: اجتناب ما نهى الله عنه، وكلاهما نصف الدين، ومن ثم فقد ابتدأ به النبى - ﷺ - مقتصراً عليه، حيث إن الإسلام يطالب معتقيه بالطهارة الظاهرة والباطنة، وما طوّل المسلم بالطهارة الظاهرة إلا من أجل أن تكون الطهارة الظاهرة وسيلة إلى الطهارة الباطنة، حتى يكون المسلم نظيفاً ونقياً وطاهراً وباطناً، ويومذاك يصبح مسلماً نقياً مخلصاً.

## الحديث الثالث

عن الشَّرِيد بن سويد الثقفي قال: قلت يا رسول الله إن أُمى أوصت أن أعتق عنها رقبة مؤمنة وعندى جارية سوداء نوبية(\*)، أفأعتقها: قال: ادعها فدعوتها، فجاءت فقال: من ربك؟ قالت: الله. قال فمن أنا؟ قالت: رسول الله، قال أعتقها، فإنها مؤمنة.

أخرجه أبو داود والنسائي:

### التحليل:

يروى لنا هذا الحديث الصحابي "الشريد بن سويد الثقفي" فيقول: قلت لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - إن أُمى أوصت أن أعتق عنها رقبة ولدى جارية نوبية سوداء، فهل أعتقها؟ تنفيذاً لوصية أُمى، وهو بذلك يومئ إلى المشورة وأخذ الرأي في معضلات الأمور وهو مبدأ إسلامي. يقول تعالى: "وشاورهم في الأمر" فأمره النبي عليه الصلاة والسلام باستدعاء الجارية، فقال لها: مَنْ ربك؟، فقالت: الجارية: ربى الله، قال لها: فمن أنا؟ فأجابته قائلة: إنك رسول الله. عندئذ، أمره النبي ﷺ بعتقها، ولاستشاره الرسول - عليه الصلاة والسلام - إيجاعات عدة وهي: أن حقيقة الإيمان لا تكتفى بظاهر الأمر، لذلك أصر الصحابي، الجليل - رضى الله عنه - على سؤال النبي - عليه الصلاة والسلام - ليتأكد من حقيقة إيمان الجارية، فحكم النبي بأنها مؤمنة، وهي إشارة وإلماح إلى الاكتفاء بالظاهر والله يتولى السرائر، وأننا لم نؤمر بالتنقيب عن قلوب الناس، ولا يعلم بواطن الأمور إلا الله سبحانه. كما أن الحديث يدل دلالة حاسمة على أنه من الواجب على المسلم الوقوف عند حد الظاهر في مثل هذه الأمور. كما أن اسم الإيمان يراد منه مجرد الاعتقاد، وكان الغرض من السؤال أيضاً الوقوف على القدر الذى يتحقق به تنفيذ وصية أمه،

---

(\*) النوبة: هى فى شمال بلاد السودان، وجنوب صعيد مصر. وأهلها مشهود لهم بالخدمة والنشاط والقوة والأمانة، وفى معجم البلدان لياقوت الحموى أن الرسول عليه السلام مدحهم بقوله [خير سييكم النوبة].

والسرّ في ذلك أنهم كانوا يرون في إيمان الإمام نقصاً، ولذلك كانوا لا ينكحونهنّ أو أن السر نصارى مثل أهل الحبشة، فأراد الصحابي أن يقطع الشك باليقين وذلك بسؤاله - عليه الصلاة والسلام -، وقد اكتفى منها عليه الصلاة والسلام - بإجابتها الموجزة في التوحيد، قولها "ربى الله"، وهو مجرد اعتراف، ولم يسألها الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن منشأ اعتقادها. وبعد سؤال النبي - ﷺ - لها، نراه يقول للصحابي الجليل - رضى الله عنه - : أعتقها، فإنها مؤمنة.

## من خلق المسلم

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة" (\*).

### الدراسة والتحليل:

في هذا الحديث النبوي الشريف يوضح لنا عليه السلام حرص الإسلام على توثيق الروابط الأخوية بين المسلمين، ودعم ما بينهم من وشائج وأمشاج، ليقوم المجتمع الإسلامي على قواعد متينة، ويرتفع على دعائم قوية يحيط بها الحب من كل المناحي، ويشملها التعاون والود من شتى النواحي. والتمتعن في الحديث يرى صورة الأخوة الإسلامية متجلية واضحة عظيمة رائعة حيث يجعل الإسلام صلة المسلم بالمسلم كالأخ الشقيق في التعامل والمحبة والود والحرص على مصلحته، وعلى ضوء هذه المعاني لا يظلمه ولا يحقره ولا يؤذيه حساً أو معنى، أو أن يتركه لأعدائه يسيّمونه سوء العذاب، وعلى أساس ذلك التعاون والإخاء يعدّهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالثواب الجزيل الذي يلقونه من الله عز وجل، فكل مسلم يسعى في حاجة أخيه المسلم، أو يفرج كربته، أو يستر عليه، فإن الله سبحانه يجزيه الثواب العظيم يوم القيامة.

(\*): المسلم: المتزم بكل ما جاء به الإسلام. لا يظلمه: لا يعتدى على حق من حقوقه - لا يسلمه: لا يدعه للآخرين بل يدافع عنه.  
الكربة: الشدة.

وفي الحديث دعوة إلى الأخوة في الله، لأن رابطة الدين من أقوى الروابط، حيث إنها تستند وتقبس معانيها وأسسها من القرآن والسنة، كما أن في الحديث دعوة إلى قضاء حوائج الناس، وتفريج كربهم، وستر عوراتهم كما أن فيه وعداً من الله بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة للذين يقدمون الخير لإخوانهم المسلمين. وتتجلى في الحديث أيضاً بلاغة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - حيث ينزل المسلم منزلة الأخ الشقيق، وهي صورة رائعة أخاذة، تطمئن إليها النفس ويستريح الفؤاد لهذا المعنى الجليل، وفي ذلك دعوة المسلم إلى الامتناع عن الأذى، والسعى في حاجة أخيه المسلم. والنبى - ﷺ - أعرف الناس بالنفوس البشرية ومكان الحافر منها والتشجيع، حيث يدفعها ذلك إلى العمل ويحفزها إلى فعل الخيرات، وخاصة أن المؤمن دائماً يسعى ويرغب فيما عند الله عز وجل من الثواب والنعم. ويعدّ الحديث لوناً من ألوان النثر الإسلامى الرائع، تجلّت فيه روعة العبارة، وجمال اللفظ ووضوح المعنى، وحسن التقسيم، كما أن فيه إيجازاً رائعاً، حيث جاءت المعانى الغزيرة فى كلمات موجزة. وهذه بلاغة رسول الله - ﷺ - الذى وصفه ربه سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة النجم الآية رقم [٤، ٣].

## وصية نافعة

عن أبي العباس عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال: "كنت خلف النبي - ﷺ - يوماً، فقال: يا غلام. إني أعلمك كلمات ينفعك الله بهنَّ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك\*، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأَقلام، وُجِّفَت الصحف".

### الدراسة والتلحيل:

كان النبي - عليه الصلاة والسلام - أشد ما يكون حرصاً على نفع المسلمين وعلى جلب الخير لهم. وفي هذا الحديث يهتبل يعنى: ينتهز الفرصة، فرصة قرب العباس منه، فيعلمه كلمات تنفعه في الدنيا، وتجلب له الخير في الآخرة وهي ليست خاصة به وحده، بل هي تعاليم وتوجيهات راشدة وقائدة لكل مسلم يعي هذه الكلمات، وينفذ تلك النصائح والتوجيهات، فهي تتهدى إلى الخير، وتقود المسلم إلى الطريق المستقيم، فهي تبدأ بدعوته إلى حفظ الله ليحفظه. وحفظه الله يكون بأداء ما فرضه الله عليه، والنأي عما حرّمه، مع طاعته وتقواه، وعندئذ يحفظه الله في نفسه وأهله، وماله وولده، ودينه ودينه، ثم يوضح له معاني العزة والقوة حيث إن المؤمن لا يسأل أحداً سوى الله، ولا يطأطئ رأسه لغير الله سبحانه، فإنك إن سألت

---

(\*) تجاهك: في مواجهتك لا يغيب عنك لحظة - استعنت: من الاستعانة وهي طلب المعونة - كتبه: قدره وأراده.

الناس غضبوا، وإن أعطوا منوا، وإذا سألت الله سبحانه رضى عنك وأعطاك دون من أو أذى". يقول النبي - ﷺ -: (من لم يسأل الله يغضب عليه، ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع)، ثم يوجهه أن يطلب العون من الله وحده، فهو القادر على كل شئ، ويؤكد له أن الله هو القادر وأن عباده جميعاً عاجزون عن تقديم الضرر أو النفع لأحد من الناس فالله وحده هو النافع وهو الضار وهو مالك الملك، وهو على كل شئ قدير ﴿ وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾<sup>(١)</sup>.

وقوله ﴿ وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾<sup>(٢)</sup>.

كما يدعو الحديث إلى المحافظة على حدود الله، وتعاليم الدين الحنيف، وطلب العون من الله وحده (وإذا استعنت فاستعن بالله)، وألا يخشى أحداً إلا الله فهو وحده الذى يضر وينفع، وفي هذه الدعوة تربية للمؤمنين على الإباء والشمم، والعزة والكرامة والأنفة، ورفض الذل والضميم والاستكانة. وفي الحديث ما يدل على حرص رسول الله - عليه الصلاة والسلام - على تقديم الخير لأمته، وإسداء النصح لهم وتوجيههم إلى الخير في كل مناسبة تسمح بالنصيحة والتوجيه. ويستهل النبي عليه السلام حديثه بما يسترعى به سمع العباس، ويستثير كوامن الشوق فيه إلى ما يلقى إليه، منبهاً إياه إلى أنه سوف يعلمه كلمات ينفعه الله بها علماً وعملاً، وينفع الناس بها عظة وتعليماً، وذلك لبيان قيمة ما يلقى إليه، ودفعه إلى الحرص على الاستماع، طالباً منه العمل بما يستمع إليه، وحديث رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وكلماته الواردة فيه من الدرر العوالي، والحكم الغوالي، كما أن في الحديث من الوصايا النافعة ما لو عمل بها المسلمون لسعدوا في الدنيا والآخرة، ولو اتخذتها الأمة الإسلامية منهاجاً في التربية لعزت وسمت، ووصلت إلى ما تنغيها من مجد ومكانة سامقة.

(١) سورة يونس الآية رقم: ١٠٧.

(٢) سورة الأنعام الآية رقم: ١٧.

## من شجاعة المؤمن

روى ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله - ﷺ - قال: لا يحقر أحدكم نفسه. قالوا: يا رسول الله، كيف يحقرُ (\*) أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمراً لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه.. فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول فيّ كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فيأى كنت أحق أن تخشى".

### الدراسة والتحليل:

إن من أروع القيم التي ربي الإسلام عليها أتباعه من المؤمنين الأتقياء، والمسلمين الأصفياء أن تكون لديهم الشجاعة في الحق، وأوصاهم الإسلام أن يصدعوا بها في وجه العتاة والظالمين، والجبابرة والطاغين مهما كلفتهم من ثمن، ولاقوا في سبيلها من متاعب كثيرة، فلا بد لليل أن ينجلي، ويطلع الفجر الصادق محطاً للظلام الدامس بضيائه الواضح. والشجاعة الأدبية تدفع المسلم إلى قول الحق وفعله، علماً بأن كلمة الحق مريرة المذاق، وثمرتها فادح، ولكن ربحها أكبر، وثوابها أعظم حينما يقدم عليها المسلم في جسارة لا تخشى اللوم، ومواجهة للباطل، غير هيابة لجبروته أو المجاهدة في سبيل إقرار الحق دون نكوص أو تردد وهي مظهر من مظاهر اعتداد المسلم بذاته، واستقلاله في سلوكه وفكره. كل ذلك يمنعه من مجارة

(\*) لا يحقر: لا يزدريها أو ينتقصها - مقال: أى قول واجب مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول الحق.

- كذا وكذا: كناية عن الموقف الذي ينبغي أن يصدع المؤمن فيه بقول الحق - خشية الناس: أى خوفاً منهم.

- فيأى كنت أحق أن تخشى: يعنى أنت قد خشيت الناس والله أحق بالخشية.

العادات والأعراف والتقاليد، وتمنعه من الخضوع لموارث البيئة وأعرافها، وهو في ميسس الحاجة إلى جهاد نفسه حتى ينجح في الجهر بالحق ولا يخشى في الله لومة لائم. وقد امتدح القرآن الكريم هذا الصنف الذي يصل في جهاده إلى هذه المرتبة فيقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وليس من الإيوان في شئ أن يرى المسلم حرمات الله تنتهك وأوامره تُعطل، والفساد يستشري ثم لا يقول بعد ذلك كلمة حق مرضاة لله ورسوله خشية الناس، والله أحق بالخشية. يقول سبحانه: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾<sup>(٢)</sup>.

كما أنه ليس من الشجاعة الأدبية أن يغضب المسلم ربه في سبيل إرضاء الناس، كما يرشدنا الحديث إلى صورة من صور احتقار النفس قد تغيب عن كثير من الناس لا يحسون بها ولا يدركونها، وذلك أن يرى المسلم منكراً ثم لا ينكره، أو معروفاً ثم لا يقوم به، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات المسلم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup>.

ويعد الحديث الشريف السَّاكْتُ عن الحق أنه محتقر لنفسه ثم ينهى عن ذلك، فيقول "لا يحقر أحدكم نفسه"، ثم يثير بذلك سؤالاً فيقولون لرسول الله - عليه الصلاة والسلام -: "كيف يُحَقِّرُ أحدنا نفسه؟! فيجيبهم ﷺ (يرى أمر الله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه) ونرى الحديث الشريف يرد فيه أسلوب النهي لا يحقر" لتحذير المسلمين من هذه الصُّورة البشعة وأسلوب الاستفهام الحقيقي (كيف يحقر

(١) سورة المائدة آية رقم: ٥٤.

(٢) سورة الأحزاب آية رقم: ٣٧.

(٣) سورة آل عمران آية رقم: ١١٠.

أحدنا نفسه)، وذلك لطلب الإجابة لما يجهلون معرفته، وكذلك أسلوب الاستفهام الإنكارى فى قوله: (ما منعك أن تقول فيّ كذا وكذا، وذلك توبيخ للساكيتين عن الحق، كما نرى أسلوب القصر فى قوله تعالى: "فإياى كنت أحق أن تحشى" وذلك ليفيد أن الخشية إنما تكون لله وحده سبحانه وتعالى.

#### ١ - الجليس الصالح:

عن أبى موسى عن النبى - ﷺ - قال: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن يتباع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة".

#### ٢ - مكارم الأخلاق:

قال رسول الله ﷺ "أوصانى ربى بتسع، أوصيكم بها: أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية، والعدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمنى، وأعطى من حرمنى، وأصل من قطعنى، وأن يكون صمتى فكراً، ونطقى ذكراً، ونظرى عبراً".

#### ٣ - المسلم أخو المسلم:

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله. والتقوى ها هنا. ويشير إلى صدره الشريف ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه".

#### ٤ - وجوب الإيمان بالرسالة الخاتمة:

عن أبى هريرة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: "والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت، ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار". رواه مسلم.

## ٥ - الأخوة في الإسلام:

قال رسول الله - ﷺ:

"من كان عنده فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل زاد، فليعد به على من لا زاد له".

قال أبو سعيد (راوى الحديث): "فذكر رسول الله - ﷺ - من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل".

## ٦ - قوة المؤمن:

قال صلى الله عليه وسلم:

"المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز وإن أصابك شئ فلا تقل: "لو كان كذا لكان كذا" ولكن قل: "قدر الله، وما شاء فعل"، فإن "لو" تفتح عمل الشيطان".

## ٧ - من صور الجهاد:

عن أنس - رضى الله عنه - قال: خرج النبي - ﷺ - إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة - ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم - فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع، قال: "اللهم إنَّ العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة"، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

## "الخطب"

### أدب النبي ﷺ وصحابته (رضى الله عنهم)

لقد انتظم كلامه - ﷺ - المعاني الأدبية المتباينة وتعرض لجوانب الحياة بعبارات مؤثرة، وجعل تعبر عن شعور رقيق، وذلك بضرب المثل حيناً، والتمثيل الرائع حيناً آخر، وبالمنهج القصصي حيناً، وبالحوار تارة أخرى، كما أنه عليه السلام كان يُؤثّر السهولة حين يقتضى الأمر ذلك والجزالة حين يستدعيها المقام، ويسط الكلام، فيصبح سلساً سهلاً، ويعمد إلى الإيجاز، فيصير من جوامع الكلم، وفي الوقت نفسه يكون معجزاً. ومثال ذلك.. اختياره - عليه الصلاة والسلام - الاستعارة "القوارير للنساء"، حيث يقول - عليه الصلاة والسلام - : "رفقاً بالقوارير" طالباً الرفق في معاملتهن، لأنهن ذوات إحساس مرهف، وشعور رقيق يشبه الزجاج في الرقة ونعومة اللمس، كما اشتمل كلامه - عليه الصلاة والسلام - على الجزالة والتأثير، مثل قوله - عليه الصلاة والسلام - : "أمرني ربي بتسع أوصيكم بها، أمرني بالإخلاص في السرّ والعلن، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطى من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونظمي ذكراً، ونظري عبراً" كما تجلت في كلماته وأدبه عليه السلام العاطفة الرقيقة، وعبر عنها بكلام مؤثر بليغ، تجلّى ذلك في مقولته عن جبل "أحد" "هذا جبل يحبنا ونحبه، وهو على باب من أبواب الجنة، وفي رواية أخرى (هذه طابة وهذا جبل يحبنا ونحبه)<sup>(١)</sup>.

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى [غزوة تبوك].

أما عاطفة الرحمة فقد تجلت في كلامه - ﷺ - حيث قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم، فأحسنوا الذبحة وليحدِّ أحدكم شفرته، ويرح ذبيحته" (١). وقوله أيضاً: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" (٢). كما أننا نرى كثرة التشبيهات الرائعة البليغة والتمثيل في كلامه عليه السلام. وقد جاءت تشبيهاته وتمثيلاته - عليه الصلاة والسلام - معتمدة ومقبوسة من البيئة التي يعيش فيها الناس، ويضرب الأمثلة الحسية للأشياء المعنوية لقربها إلى الأفهام، وتتضح في الأذهان. ومثال ذلك عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ - "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنما مثل المؤمن، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله بن عمر: ووقع في نفسى أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: ما هو يا رسول الله قال: النخلة" (٣). وهناك نصوص أخرى للرسول - عليه الصلاة والسلام - تتصل بجوانب الحياة كلها، وهي تُؤدِّي عملها بأسلوب حسن مؤثر وقوى. كما نرى الجوانب التربوية في كلامه ﷺ. وترى ذلك جلياً واضحاً في خطبة "حجة الوداع" كما ترى أسلوب الوصف، والتوجيهات الإسلامية، وعاطفة التواضع والرجاء الذي نلمحه من دعائه يوم عرفات، حيث نجد الرجاء المخلص الذي يرجوه من الله عز وجل في تواضع وخشوع، وهو عليه السلام أنموذج وأسوة وقدرة للأدب الإسلامى الإنسانى الرفيع.

وقد حذا حذوه، ونسج على منواله - عليه الصلاة والسلام - صحابته - رضوان الله عليهم أجمعين - حيث جاء أدبهم أدباً إسلامياً هادفاً، وإنسانياً نبيلاً، يعالج القضايا الإنسانية والاجتماعية التي يعيشها الناس والمجتمع، نلمح ذلك من

(١) رواه مسلم [كتاب الذبائح].

(٢) رواه أبو داود.

(٣) صحيح البخارى [كتاب العلم].

خلال النصوص التي جاءت على ألسنتهم رضى الله عنهم، وذلك في التعبيرات عن الألم وحوادث الزمن، والقضاء، والوصف للحزن والسرور، وما إلى ذلك من الأغراض المتباينة بأسلوب رصين، ولفظ متين مملوء بالتشبيهات، والاستعارات، والكنايات، والتمثيل في دقة ووضوح، وبلاغة ماً فوقها بلاغة، مع الالتزام بالمنهج الإسلامى.

## خطب الرسول ﷺ "فى حجة الوداع"

قال رسول الله - ﷺ - بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أيها الناس: اسمعوا قولى، فإننى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ريباً موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كُله، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبداً به من دماء الجاهلية.

أما بعد،

أيها الناس: فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: (إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونهُ عاماً ويمحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) ويمحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور

عند الله اثنا عشرأ في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم) ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذين بين جمادى وشعبان.

أما بعد،

أيها الناس: فإن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا بعدي أبداً أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لا مرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ فذكر لى أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله - ﷺ -: اللهم فاشهد<sup>(١)</sup>.

### "بين يدي الخطبة"

خطبة الوداع مشهورة في مصادر السنة والسيرة، ولكنها لم ترد كاملة إلا في مصادر قليلة، منها سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى، والمغازى للواقدي وحجة المصطفى - ﷺ - للحافظ المحدث حُبِّ الطبرى.

ورواية الواقدي في المغازى تختلف عن باقى الروايات، ففيها تقديم وتأخير، وزيادة ونقصان، واختلاف في الصيغ، وقد رواها عن مصدرين، ينتهى أحدهما إلى

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٥ وما بعدها. مكتبة الكليات الأزهرية تعليق طه سعد ١٣٩٨ هـ

ابن عباس رضى الله عنهما، وينتهي الآخر إلى عمرو بن يثرب وقال: (وزاد أحدهما على الآخر في القصة) ووردت من الخطبة مقتطفات في كتب السنة والسيرة، وقد ينسب إلى هذه الخطبة ما لم يرد في النص الموجود في المصادر السابقة مما أورد بعضه المحدث محب الطبرى ثم عقب عليه بقوله: (وهذا القول وما في الحديثين اللذين رواهما ابن اسحاق قبله يجوز أن يكون قاله - ﷺ - في خطبته بطن الوادى وليس من عرفة عندنا، وأطلق عليه عرفة لقربه منها، أو أن يكون قاله في الموقف عند الصخرات وهو الأظهر، ويكون كرر بعض ألفاظ خطبته بطن الوادى. وذلك لأنه روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما قال: (سمعت ﷺ - يخطب بعرفات) وأورد بعض ما قاله، وعقب عليه وعلى غيره بما سبق. إذاً فهناك أكثر من خطبة كما يشير إلى ذلك محب الطبرى، وكما ذكر ابن القيم أيضاً، وليست خطبة الوداع وحدها هي التي قيلت في هذا التاريخ، والزيادة والنقصان والتقديم، والتأخير ربما كان راجعاً إلى اختلاط هذه الخطبة بعضها ببعض، خاصة أنها متقاربة في الزمان والمكان والمضمون، ويقول الأستاذ الدكتور "أحمد محمد على" (ونحن اعتمدنا رواية ابن هشام عن ابن اسحاق لأنها كما يقول محب الطبرى: أتم<sup>(١)</sup>)، وهى تقرب اقتراباً شديداً من رواية ابن جرير الطبرى في تاريخه، ولذا أتمنا من رواية ابن جرير الطبرى بعض ما نقص فيها، مثل آية النسيء التى وردت في ابن هشام "إن النسيء" فأخذناها عن الطبرى "إنما النسيء" لأنها الموافقة للمصحف الشريف. يقول تعالى:

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَهُ عَامًا وَ يُحْرِمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) من أسرار البيان النبوى للأستاذ الدكتور أحمد محمد على [عبد زائد] ص ٧١ دار الصحوة للنشر الأولى ١٤٠٦ هـ - ٢٩٨٥ م.  
(٢) سورة التوبة الآية رقم: ٣٧.

ومثل آية عدة الشهور التي وردت في ابن هشام "إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم" فأخذناها عن الطبري «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ»<sup>(١)</sup>.

كما هو النص القرآني. وبهذا يكون نص الخطبة معتمداً على رواية ابن هشام ثم رواية الطبري. كما أن هناك خلافاً واضحاً بين نص الخطبة في رواية "ابن هشام عن ابن اسحاق، وبين نص الخطبة "في العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي" في الألفاظ والعبارات وإليك أمثلة - على سبيل المثال، لا الحصر - يقول صاحب العقد الفريد: "اسمعوا مني أُيُّنُ لكم"، وفي رواية ابن هشام "اسمعوا قولي"، أيضاً "كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا" بينما نجدها في ابن هشام "كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا"<sup>(٢)</sup>.

كما نجد بعض الجمل من الخطبة غير موجودة البتة في رواية ابن هشام وكذلك الروض الأنف مثل قوله في العقد: "وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود، وشبه العمد، ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية"<sup>(٣)</sup> ومثل ذلك أيضاً نجده في "الروض الأنف حيث يقول "فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً"، بينما ذكر ابن هشام: [فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه فقط كما ذكر السهيلي "إن النسيء"، بينما نراها لدى ابن هشام [إنما النسيء]<sup>(٤)</sup> فواضح أن هناك أكثر من خطبة قيلت في هذا

(١) سورة التوبة آية رقم: ٣٦.

(٢) العقد الفريد للفقهاء أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي - تحقيق محمد سعيد العريان ج ٤ ص ١٢٥ وما بعدها - ط ونشر - دار الفكر.

(٣) ذاته ص ١٢٥.

(٤) الروض الأنف للسهيلي ج ٤ ص ٢٣١ قدم له وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد مكتبة ومطبعة عباس عبد السلام شقرون.

التاريخ، كما يومئ إلى ذلك الطبرى وابن القيم فى كتاب "زاد المعاد"<sup>(١)</sup>، وقوله ﷺ: "أيها الناس" والذين وجه إليهم النبى ﷺ النداء موجودون بحضرته يوم النحر وهو مشرف عليه من فوق ناقته القصواء<sup>(٢)</sup>. وقد خاطبهم بقوله "أيها الناس" ولم يقل أيها المؤمنون، لأن وصاياه - عليه الصلاة والسلام - فى هذه الخطبة الجامعة يمكن أن تقيم مجتمعاً سليماً، وأن فائدة الخطبة وأثرها ليس مقصوراً على الفئة المؤمنة بل كل من يعمل بها من بنى الإنسان لا ريب فى أنه سيعيش سعيداً فى دنياه، وإن آمن، فسيعيش سعيداً فى أخراه. "أن تلقوا" فى تأويل مصدر مجرور بـ"بلى" ربكم" للإشعار بالربوبية والتربية وأن المربى هو الله عز وجل المتفضل على خلقه بالرعاية والعناية، والفضل والإحسان مما يوجب على المرء الطاعة والإذعان له "كحرمة يومكم هذا" وكحرمة شهركم هذا" وفى هذا حث القوم على التنبه واليقظة واستجماع الحواس لما سيلقى عليهم من أوامر ونواهٍ وذلك لأهميتها، كما أن فى اتباعها وتنفيذها سعادتهم فى الدنيا والآخرة "وأنكم ستلقون ربكم" مما يؤكد أن اللقاء مع الله سبحانه أمر ثابت الوقوع ولا ريب فيه، ولا جدال حواليه، فيسألكم الله كل فرد عن عمله الذى له فيه إرادة واختيار، أمّا العمل الذى لا إرادة له فيه ولا اختيار فلا يُسأل عنه والخطاب عام للمجتمع بأثره، "وقد بلغت" إن إبلاغ النبى - عليه الصلاة والسلام - لرسالة ربه لم تكن فى حاجة إلى تأكيد، وتوثيق لكنه أدخل على الفعل الماضى حرف التحقيق "قد" ليلفت النظر بتأكيد أن الخطاب جاء بهذا اللفظ لأن المجتمع المسلم لا يخلو من إقامة غير المسلمين فيه وعلى الجميع أن يقوم ببناء المجتمع وإصلاحه وقوله. "اسمعوا قولى" بصيغة الأمر التى تلت صيغة

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ط ص ٢٣٨ وانظر أيضاً سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٥ وما بعدها والمغازى للواقدي ج ٣ ص ١١١ وما بعدها تحقيق د/ مارسدن جونز مؤسسة الأعلی للمطبوعات - بيروت - مصورة عن طبعة جامعة اكسفورد بلندن سنة ١٩٦٦م وأسرار البيان النبوى للأستاذ الدكتور / أحمد محمد عبده زايد ص ٧٦.

(٢) المغازى للواقدي ج ٣ ص ١١١.

النداء ليتنبه المشغول، ويستيقظ الغافل، وصيغة الأمر في التنبيه أقوى من صيغة النداء<sup>(١)</sup>. "فإني لا أدري لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا" هذا لون آخر من ألوان التنبيه، والعلة في ذلك إحساس الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه ربما لا تتكرر هذه الفرصة مرة أخرى، ولعل معناها "التوقع لمرجو أو مخوف"<sup>(٢)</sup>. "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام" جاءت الجملة اسمية مؤكدة بـ "إن"، وخبرها جملة اسمية تقدم فيها الخبر وهو "شبه جملة" على المبتدأ "عليكم حرام" والداعى إلى التوكيد هو الرغبة في توثيق هذا الأمر في النفوس وتثبيتته في القلوب في هذا اللقاء الجامع الذي قد لا يتكرر مرة أخرى "إلى أن تلقوا ربكم" يعنى أن حرمة الدماء والأموال والأعراض مستمرة إلى يوم القيامة، و"إلى هنا" غائية هذا الخبر الواضح إلى أهميته وقيمته "فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها" أى من كانت لديه أمانة لأحد فليؤدها إليه، والأمانة في الإسلام ليست مقصورة على حفظ الودائع والأموال، وإنما الأمانة في الإسلام تنتظم حيوات المسلم جميعها من عبادة وحكم وولاية للأمر من منظور قول رسول الله - ﷺ -: "كلكم راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته، ولذلك يقول الحسن البصرى رضى الله عنه حين ولى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بعد وفاة سليمان بن عبد الملك ابن مروان، وكان قد طلب منه النصيحة فقال الحسن: يا أمير المؤمنين إن الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف ونصفه كل مظلوم. يا أمير المؤمنين إن الإمام العادل كالراعى الشفيق الرفيق بإبله يرتاد لها أطيب المرعى ويزود عنها السباع، ويبعدها عن مواطن التهلكة، يا أمير المؤمنين: إن الإمام العادل كالأب الحانى على ولده، يرببهم صغاراً، ويعطف عليهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته إلى آخر ما قال. كما أن الزوجة في مال زوجها راعية، والولد في مال أبيه راع، والخادم في مال سيده راع، وكلهم

(١) من أسرار البيان النبوى أ. د أحمد محمد على الأستاذ في كلية اللغة العربية بالقاهرة ص ٧٨ تصرف.  
(٢) ذاته وأيضاً المقتضب ج ٤ ص ١٠٨ تحقيق الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

مسئول عن رعيته، ولأهميتها يقول النبي - ﷺ -: " لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد عنده ". ونحن نرجح أن الأمانة في الإسلام تنتظم حياة المسلم كلها من عبادات، ومعاملات. " وإن كل رباً موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله " ولخطورة الربا وعظم حرمة وشيوعه لدى العرب خصه بنص دون بقية الموضوعات، ثم يؤكد الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه لا ربا وذلك لفظاعة حرمة، وأن جميع أنواع الربا محرمة وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وذلك لإعطاء القدوة في أسمی آفاقها، وأعظم غاياتها.

" وإن كل دم من الجاهلية موضوع. وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً في بني " ليث فقتله هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. إن الدم عند العرب له مكانه خاصة، لذا أكد النبي ﷺ: حرمة، وفظاعة جرمه، وكما بدأ عليه السلام بوضع ربا عمه العباس بن عبد المطلب بدأ كذلك بوضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عم النبي ﷺ: " وقد بدأ النبي بعشيرته وأقربائه ليؤكد بذلك القدوة المطلوبة في شخص القائد أو رئيس القوم ".

" إن أمر الربا لم يتأخر تحريمه إلى حجة الوداع، وكذلك وضع دماء الجاهلية لم يتأخر إلى حجة الوداع أيضاً والذي حدث من الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه أكد ما سبق تحريمه، وهناك من الوقائع ما يقطع بأن تاريخ وضع دماء الجاهلية كان أسبق من حجة الوداع بمدة كبيرة. ثم يمضى النبي عليه السلام في خطبته مؤكداً أن عبادة الأصنام انتهت ولن تقوم لها قائمة في الجزيرة العربية بعد اليوم فقد حطمت الأصنام، وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

ثم ينبه - عليه الصلاة والسلام - إلى أن النسئ في حقيقته ضرب من العبث بالزمان وهو تأخير حرمة شهر حرام إلى شهر آخر، وكان أول من نسأ الشهور على

العرب فأحلت منها ما أحل، وحرّمت منها ما حرم "القلمس" (١) وهو "حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدى عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة" ثم قام بعده على ذلك ابنه عبّاد بن حذيفة ثم قام بعده "قلع بن عبّاد". وقد فخروا بالنسب في أشعارهم فقال عمير بن قيس: أحد بنى فراس بن غنم من كنانة يفخر بالنسأة على العرب فيقول:

لقد علمتُ معدّ أن قومي      كرامُ الناس أن لهم كراما  
فأىّ الناس فاتونا بوتر      وأىّ الناس لم نُعلِك لجاما  
ألسنا النَّاسِئِين على معدّ      شهور الحل نجعلها حراما؟ (٢)

ثم تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن حقوق الأزواج على الزوجات وحقوق الزوجات على الأزواج، وعلى الرغم من أن كل حق للزوج على زوجته هو واجب على الزوجة له، وكل حق للزوجة على الزوج هو واجب عليه لها، فإننا نرى هنا أنه استخدم الحقوق بدلاً من الواجبات، فلم يقل مثلاً إنه يجب على الرجال أنه يفعلوا كذا إلى نساءهم، ولم يقل يجب على النساء أن يفعلن كذا لرجالهن، لأن في ذكر الحقوق من الفائدة ما ليس في ذكر الواجبات فلصاحب الحق المطالبة به، والحفاظ عليه، والاستمسك به، وله أن يتنازل عنه إن شاء. أما الواجب، فلا يفيد أن للطرف الآخر حق الدفاع عما وجب له عند صاحبه وحق المطالبة به، إن الحقوق هنا واجبة الأداء، فإن قصر من عليه الحق فلصاحب الحق أن يسلك الطرق التي شرعها الله تعالى للوصول إلى حقه. وقدم حق الزوج على الزوجة، لأن حق الزوج هو الأصل المقيس (٣) عليه، ثم يختم النبي ﷺ خطبته بتوجيهات راشدة ونصائح غالية "فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف وكذلك الحافظ على النساء" واستوصوا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٨ قدم لها طه سعد مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) ذاته ص٣٩.

كراما. يعني آباء كراماً وأخلاقاً كراماً. لجاماً. لم تعد عنهم وتكفهم كما يقدر الغرس باللجام.

(٣) من أسرار البيان النبوي أ. د/ عبده زايد ص١٢٧ - دار الصحوة بالقاهرة.

بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإنني قد بلغت. اللهم فاشهد، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً.. كتاب الله وسنتي، وأن كل مسلم أخٌ للمسلم، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلموا أنفسكم، فقال الناس نعم حين قال: اللهم هل بلغت؟، فرد عليهم الرسول ﷺ: اللهم فاشهد.

ومن خطبه له أيضاً (ﷺ):

خطب رسول الله - ﷺ - ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه، ثم أقبل على الناس فقال:

"أيها الناس: إن لكم معالم فانتوها إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتوها إلى نهايتكم، فإن العبد بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبية قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت. والذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار".

**المعنى الإجمالي للخطبة: (\*)**

هذه الخطبة على وجازتها جاءت بمعان سامية وغزيرة وفيرة يعجز عن الإتيان بمثلها أفصح الخطباء وأقواهم ولا غرو فالخطيب رسول الله عليه السلام الذي أوتي جوامع الكلم، وأفصح من نطق بالضاد فيقول عليه الصلاة والسلام: إن لله عز وجل معالم جليلة، ومنها بينا واضحا، فالإسلام بتعاليمه السامقة، وأوامره السامية ونواهيها التي لا لبس فيها ولا غموض، والتي أجلت طرائق الخير ودعت

---

(\*) المعالم جمع "معلم" وهو الأثر الذي يستدل به على الطريق، والمراد به هنا أحكام الله وحدوده. انتهوا: قفوا لديها ولا تعتدوها. والذي نفس محمد بيده. قسم أي أقسم بالله الذي خلق نفس محمد وهو قادر على أخذها، مستعتب. طلب الرضا.

إليها، وبينت طرق الشرّ ونهت عنها، وبها جاء به من مبادئ قويمه، وتعاليم سوية يضع أمام البشرية جمعاء، الدلائل التي ترشدكم إلى الحق والخير، وتعرفهم بالضال منها والمنحرف، أو المستقيم، فكان واجبا على الناس الاسترشاد بما جاء به الإسلام الحنيف، وأن يترسموا هديه البين، وقد أقام الله سبحانه للناس حدودا أو نهايات للوقوف لديها في كل أعمالهم، وأقوالهم وتصرفاتهم ثم يلقي النبي ﷺ الأضواء الكاشفة على موقف الإنسان في الحياة الدنيا مبينا أن المرء بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه، وبسبب هذا كان العبد بين مخافتين، فالأمر يتطلب اليقظة، والعمل الدءوب، حتى يكون بمنجاة من سخط الله عز وجل، ثم نرى سيدّ الخطباء ينتقل بعد ذلك إلى تبيان ما يجب على العبد أن يسلكه في حياته، وهو أن يكبح جماح نفسه مما تحبه، وتغريه بارتكابه وأن يبادر إلى الطاعات، وفعل الصالحات، والنأي عن ارتكاب المناكر، واقتراف السيئات، مغتنياً الشباب في تحصيل البرّ والحسنات، قبل أن يطعن في السن ويخط الشيب رأسه، وينذر الهرم بالفناء، وأن يغتنم الحياة الدنيا، فيعمل بجد واجتهاد فيها ما يقربه إلى الله سبحانه، قبل فوات الأوان، وإدراك الموت له، ثم يحتتم الرسول عليه السلام خطبته هذه بقسم يؤكد الكلام الذي ساقه من قبل اعتباراً وعظّة، وتنبهاً وإرشاداً، أن الإنسان إذا مات انقطع رجاؤه وانتهى أمره، ودفنت معه في التراب أماله وطموحاته، حيث لا فرصة لتدارك ما فات. لقوله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" ولا يصبح أمامه شئ سوى الثواب أو العقاب، فله جزاء الجنة إن كان مطيعاً، وجهنم يصلها إذا كان عاصياً مسيئاً.

### تعقيب:

هذه خطبة رائعة لرسول الله ﷺ وهي أنموذج رفيع عال للخطابة الإسلامية الراقية، يتجلى فيها حرصه عليه السلام على الأخذ بيد البشرية جمعاء إلى فعل الخير، والنأي عن المناكر واقتراف الآثام، وعلى العبد أن يهتبل فرصة الحياة فيعمل للدار

الآخرة، وهى الباقية الدائمة، يقول سبحانه: " وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون " وفرصة الشباب فيستغله في فعل الطاعات قبل هرمه وتقدم سنه وإقعاد الشيخوخة له عن العمل، وإعاقته عن تحصيل الخير الذى سيكون سبباً في سعادته، ورضا ربه عنه. وقد استهل النبي - عليه الصلاة والسلام - خطبته ببناء عام شامل لكل الناس، وبصورة موحية معبرة جعلت أوامر الإسلام ونواهيه معالم ودلائل على الطريق البين الواضح كى تراها كل عين، ويسترشد بها كل منه كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، حتى لا تزيغ به الأهواء، ويمجد عن الجادة ويؤدى به ذلك إلى العمى والغى والضلال، وهى استعارة تصريحية. وقوله عليه السلام " بين مخافتين " تنبيه للعبد ليقدر موقفه، ويعى سلوكه فى الحياة الدنيا.

يقول الشاعر:

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها      فمن علا زلقا عن غرّة زلجا

والغاية التى يتغيّاها الرسول - عليه الصلاة والسلام - من قوله: " فليأخذ العبد من نفسه لنفسه " النصح والإرشاد والتوجيه، وهذا تبيان للناس أن الإسلام يهدف إلى تحقيق الخير للبشرية جمعاء. والخطبة مع وجازتها تتميز بالقصد إلى الفكرة، وإمتاع الناس بها، لذا فهى تقرر وتبين، وتصوّر مع التأكيد والتعليل، الأمر الذى يؤثر فى النفس، ويملك عليها أقطارها، كما أن فيها إيجازاً مع الوفاء بالمعنى، وهى أيضاً تمتاز بالعدوبة والسلاسة مع قوة التعبير، وجزالة الألفاظ، كما أنك ترى فيها المقابلات: بين " الدنيا، والآخرة، والشباب والكبر، والجنة والنار. وأجل قد مضى، وأجل قد بقى، والحياة، والموت. وهى مقابلات نراها قد نبعت عن الموقف ذاته، لذا جاءت قوية التعبير عنه.

ومما لا ريب فيه أن خطب رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وأحاديثه فى قمة الإعجاز البلاغى واللغوى بعد القرآن الكريم، وهى نبع فياض، وبحر خضم،

سيظل معينا يغترف منه الشعراء والأدباء والخطباء والكتاب، ويفيدون منه منهجا وأسلوبا، ألفاظًا وأفكارا.

وصدق أمير القوافي "أحمد شوقي" حين قال:

وإذا خطبت فللمنابر هزة      تعرفوا الندى وللقلوب بكاء<sup>(١)</sup>

---

(١) الشوقيات لأحمد شوقي في ج ١ ص ٢٤ - دار اليوسف سنة ١٩٨٧م.

## من خطبة لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه -

### يوم السقيفة(\*)

أراد عمر الكلام، فقال له أبو بكر - رضى الله عنه -: على رسلك، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس، نحن المهاجرين، أول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان" فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفئ، وأنصارنا على العدو، أويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيرا، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله<sup>(١)</sup>.

---

(\*) يوم السقيفة هو: بعد أن قبض عليه السلام انحاز حى من الانصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بنى ساعدة واعزل على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر ومعهم أسيد بن حضير في بيت عبد الأشهل ثم أتى على أبى بكر وعمر، فقال: إن هذا الحى من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بنى ساعدة فأدركوا قبل أن يتفاهم أمرهم. ثم تداركوا الأمر تمت البيعة لأبى بكر رضى الله عنه.

(١) ذاته ص ١٢٦ وما بعدها.

## ومن خطبة له أيضا عن البيعة

لما بويح أبو بكر - رضى الله عنه - بالخلافة، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى، أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم. ألا إن أقوامك عندى الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

### المعنى الإجمالى:

اعتاد الأمراء والسلاطين والحكام مواجهة الشعوب كلما حظوا بثقتها ونالوا رضاها، وكانت هناك مودة بينهم وبينها، واستطاعوا انتزاع التأييد منها، وذلك بخدمتها، والسهر على رعاية مصالحها، والاهتمام بشئونها، وفى العصر الحديث نرى الحكام يتقدمون أمام الشعب الذى يمثلون، يلقون خطبهم وبياناتهم، عارضين مناهجهم فى سياسة شئون الدولة، فإن وجد ممثلو الشعب خيرا، وافقوا عليه وأقروه، وإن رأوا غير ذلك عارضوه ووضعوا منهجا يرتضونه، أو يقومون بتعديله حتى يصبح فى الصورة التى تتناسب ومصالح الشعب، وذلك ما يعبر عنه بلغة العصر الحديث [بالديمقراطية]، والخليفة أبو بكر - رضى الله عنه - يوضح سياسته فى الحكم فهو يقول: لقد وليت أمر المسلمين، وحملت تبعات سياستهم، وكلمهم، وإرشادهم والسهر على شئونهم، وليس ذلك دليلا على أننى أخيرهم أو أفضلهم، وإنما أنا بشر مثلهم، أخطئ وأصيب، ولذلك طالبهم بمعاونته، ومساعدته فى سياسة الدولة، وأن يكونوا رقباء على تصرفاته، وسلوكه فى حكمه لهم

وسياسته، والنظر في تصرفاته، فإن رأوه ينهج الحق، وينفذ شريعه الله - سبحانه وتعالى - وسنة رسوله - ﷺ - عضدوه، وإن رأوه غير ذلك نصحوه، وجعل طاعتهم له مرهونة بطاعته لله، فإن هو لم يحكم بما أنزل الله، كانت الرعية في حل من طاعته، كما أوضح لهم الخليفة أن الضعيف المظلوم قوى لديه، حتى يأخذ له الحق، والقوى بجاهه، وماله، ومنصبه، ضعيف لديه، حتى يأخذ الحق منه، ثم نراه يختتم خطبته القليلة في مبنائها، الغزيرة في معناها، والتي رسم، وأوضح فيها سياسة حكومته، بالاستغفار لنفسه وللمسلمين السامعين.

### المعنى الإجمالى للخطبة:

هذه خطبة لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وهى من الخطب الإسلامية السامقة، والتي تتجلى فيها خصائص الدستور الذى ألزم الخليفة به نفسه أمام جموع المسلمين المحتشدة يومذاك وهو دستور يستمد من الكتاب والسنة، وهدى الإسلام الحنيف، ومبادئه القويمة السامية التى رسمت للإنسانية جمعاء طرائق السعادة فى دينها، ودنياها، والمتمعن فى هذه الخطبة يدرك دون أدنى ريبة وقعها فى نفوس المسلمين المتطلعين إلى عهد تُظَلُّه العدالة، وترفرف فوق سمواته المساواة، والحكم العادل بعد عهد يعد من أجلّ العهود، وأعظمها، ذلك عهد رسول الله - ﷺ - الذى ملأ الدنيا طمأنينة، وعدلا، ومساواة، وكرماً وسماحة ووفاءً وبراً. ومما يسترعى النظر فى هذه الخطبة قول الصديق - رضى الله عنه -: "إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم" وذلك لما فيه من التأكيد [بان، وقد]، وما يدل عليه ذلك التوكيد من تواضع الخليفة، ونأى عن كبرياء الحكم، وزهوه وغطرسته، كما يسترعى النظر تلك المقابلات المبنية عليها خطبته - رضى الله عنه - ومن ذلك قوله: "إن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى" وهى تدل مع وجازتها على مبادئ متعددة، ومن هذه المبادئ، أن الحاكم مقيد بأن يسير فى طرائق الحق، والعدل والمساواة، كما أن الرعية مسئولة عن حكمه فيهم، وأن الصلة بين الحاكم والرعية، صلة مبنية على المحبة والتعاون، والنصيحة، والإرشاد،

والتوجيه من منظور إسلامي لقول الرسول - ﷺ - "الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال عليه السلام: لله ولرسوله، وكتابه، وأئمة المسلمين وعامتهم".

فعلى الرعية أن تقوّم الحاكم إذا انحرف، وأن تعينه إذا أصاب ومن المقابلات أيضاً قوله: "أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته؛ فلا طاعة لى عليكم" وهى دلالة على أن ولاية أمر المسلمين تكليف، وعمل دءوب، وليست بتشريف أو كبرياء، وغرور ووصلف، فأساس طاعة الرعية له طاعته لله، وتنفيذه لأوامره، ونواهيه فى سياسته لشئونهم، فإن عصى الله، فلا طاعة له عليهم. ومن المقابلات التى وردت فى خطبته - رضى الله عنه - "ألا إن أقواكم عندى الضعف، حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه"، وهذه الجملة تقرر وتؤكد - دون موارد - مبدأ العدل والمساواة بين الرعية، دون ظلم أو محاباة، كما أن فى الخطبة اقتباساً، حيث إن أبا بكر - رضى الله عنه - قبس قوله آنف الذكر من قول رسول الله - ﷺ - "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق" وذلك الاقتباس يكسو الكلام ثوباً قشيباً، ويكسبه رونقاً وبهاءً وجمالاً. والخطبة على وجازتها، تحمل بين طياتها أفكاراً ومعانى كثيرة حيث رسمت الخطبة على إيجازها سياسة دولة مترامية الأطراف، وجاءت ألفاظها متقاربة فى المعنى لا تكلف فيها، ولا غرابة، كما أن المقابلات الواردة منها أنيقة، وعباراتها سلسلة، ومترابطة فى قوة ومتانة نسج، وقد استهلّ أبو بكر - رضى الله عنه - خطبته بحمد الله، والثناء عليه، واختتمها بالاستغفار لنفسه ولسامعيه، وهذا نهج سارت عليه الخطابة الإسلامية منذ بدء الدعوة.

**ومن خطبة الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لدى البيعة :**

لما ولى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الخلافة، حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (يا أيها الناس، إنى داع فأمّناً: اللهم إنى غليظ فليّن لى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق، من غير ظلم منى لهم، ولا اعتداء عليهم، اللهم إنى شحيح

فسخّنى فى نوائب المعروف، قصدا من غير سرف ولا تبذير، ولا رياء ولا سمعة، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة، اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين، اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان، فألهمنى ذكرك على كل حال، وذكر الموت فى كل حين، اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقنى الناشط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعونك وتوفيقك، اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك، والحياء منك، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى، والمحاسبة لنفسى، وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات، اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلزه لسانى من كتابك، والفهم له، والمعركة بمعانيه، والنظر فى عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت، إنك على كل شئ قدير.

### المعنى الإجمالى للخطبة :

هذه خطبة للخليفة العادل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهى صفة شهيرة ميزت عمر عن بقية الخلفاء، وجميعهم عدول، فهم الصفوة الذين رباهم قائد هذه الأمة، سيدنا محمد - ﷺ - على مائة القرآن الكريم، والسنة المطهرة بيد أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - غلبت عليه هذه الصفة، لأنه كان شديدا قاسيا على الخارجين، والمتمردين، والظالمين، فلذلك غلبت عليه هذه الصفة دون بقية الصفات واشتهر بها، فلقد كان جباراً فى الجاهلية، وعملاقا فى الإسلام، لذلك استجاب الله دعاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - فيه حين اتجه إلى السماء داعيا (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين - عمر بن هشام، وهو الشهير بأبى جهل، وعمر بن الخطاب - رضى الله عنه) فكتب الله السعادة لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فاعتز به الإسلام، وهاجر نهارا جهارا قائلا كلمته الشهيرة: (من أراد أن تثكله أمه فليتبعننى)، وفى رواية أخرى (ليلقنى وراء هذا الوادى) فما تبعه أحد، فليس هناك حاكم يشبه عمر فى حكمه وعدله، حتى صار الأمر إذا ذكر العدل ذكر عمر، وإذا ذكر عمر ذكر العدل. فهو حاكم ملاً ربوع الأرض عدلا وسماحة ولينا مع غلظة وشدة فى الحق، وقوة فى تنفيذ حدود الله، وهو فى هذه الخطبة التى استهل

بها عهده في الحكم نراه يتجه إلى الله عز وجل، راجيا من الله أن يكلاه برعايته، ويشمله بعنايته، في هذه الفتنة التي ابتلى بها، فهو مؤمن بأن الحكم ابتلاء من الله سبحانه وتعالى، وهو امتحان مرير، وشديد قاسٍ، من اجتازه بنجاح فذلك توفيق من الله للحاكم في حياته الدنيوية، وثواب عظيم له في حياته الآخروية، لذا فإن أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - يتوجه بحديثه إلى الرعية، طالبا منهم المشاركة في الدعاء إلى الله، وأن يتجهوا معه إلى رب العباد أجمعين، راجين أن يحول الله قلب عمر من الغلظة إلى اللين في معاملته لأهل البر والتقوى، وأن يظل على غلظته وشدته وقساوته في معاملة أهل الشر والعدوان دون ظلم لهم، أو عدوان عليهم، ثم يتجه إلى ربه سبحانه طالبا منه التوفيق في العطاء دون تمييز أو إسراف، وأن يجعل هذا العطاء دوما في سبيل الله، لتحقيق الأهداف السامية، والخلال النبيلة، دون مواجهة للرعية، ولا حبا في الإطراء والمديح، كما أن الخليفة يسأل الله تبارك وتعالى أن يجعله دائم التواضع للمسلمين، لين الجانب لهم، عطوفا متسامحا في معاملتهم، حتى يكتسب بهذه الخلال الرفيعة رضا ربه عز وجل. كما أنه يطلب من الله سبحانه أن يرزقه خفض الجناح للمؤمنين اقتداء برسول الله - ﷺ - حيث أمره ربه بذلك فقال تعالى: "واخفض جناحك للمؤمنين" كما أنه كثير الغفلة والنسيان، فيطلب من ربه أن يلهمه ذكره على كل حال، وذكر الموت في كل حين، وأن يرزقه النشاط في العمل، والقوة على ذلك بالنية الحسنة والتي لا تكون إلا بعون الله سبحانه وتوفيقه لعباده، وأن يثبتته باليقين والتقوى والبر، والحياء من الله، وأن يرزقه الخشوع والخضوع، ومحاسبة النفس. قال رسول الله - ﷺ -:

"حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم"، كما يرجو الله سبحانه أن يقيه شر الشبهات ويرزقه التدبر، والتفكر لما يتلوه من القرآن الكريم، عملا بقول الحق "أفلا يتدبرون القرآن"؟، والفهم لمعانيه والنظر في عجائبه، والعمل بها جاء في القرآن الكريم من أوامر ونواهٍ، إنه سبحانه على كل شيء قدير.

هذه خطبة من الخطب الإسلامية لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهى فى الحقيقة أقرب إلى الدعاء منها إلى الخطابة، وليس أدل على ذلك من عباراتها الواردة فى الخطبة. فهى دعا أن يلينه لأهل الطاعة، وأن يجعله غليظاً لأهل النفاق والمنكر، وأن يرزقه التدبر فى القرآن... وهكذا، كل العبارات التى وردت على لسان الخطيب (عمر)، ولولا أنه بدأ خطبته هذه بحمد الله والثناء عليه كعادة الخطباء فى استهلالهم الخطب الإسلامية لكان فى وسعنا ومن حقنا أن نقول: إن كلام عمر - رضى الله عنه - هذا لا يعدو أن يكون (ابتهالات) يتجه بها إلى الله عز وجل فى أول عهده للخلافة، وحكم المسلمين ليوفقه فى مهمته الصعبة وهى ولايته للمسلمين، وإن كان الخطبة أقرب إلى الدعاء منها إلى الخطابة إلا أننا نستطيع أن نقول: إن المتأمل لكلام لعمر يلمس بين ثناياه اتجاهه الذى عقد العزم عليه فى حكمه، والنهج الذى خطه لسياسة دولته، والسبيل الذى سينهجه فى معاملته لرعيته فهو غليظ فى غير عنف، ولين فى غير ضعف، شحيح بهال المسلمين، سخي بما يملكه، لأن مال المسلمين مال عام مسئول عن التصرف فيه أمام الله عز وجل، وهو متواضع فى أنفة وعزة، متسام دون غرور أو صلف، ودون تكبر أو تجبر، وهو يعمل إرضاء لله سبحانه، دون رغبة فى سمعة أو إطراء، وهذه أخلاق وصفات وشئائل يندر أن تتوفر أو يوجد لها نظير فى عداد الحكام، وخاصة فى هذا العصر الأنكد، والخطبة فيها أسلوب خبرى هو (إنى داع فأمثنوا) ذكر بالتوكيد لاستثارة الهمم وحفزها على المشاركة فى الدعاء، كما أن الخطبة تعج بأساليب الأمر الكثير مثل: وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك، واللهم إنى شحيح فسرخنى فى نوائب المعروف، فألهمنى ذكرك على كل حال، اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك، واللهم أرزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين. وأساليب الأمر هذه التى يتوجه بها إلى الله عز وجل هى لدى علماء البلاغة (رجاء)، حيث إنها أمر

من الأدنى إلى الأعلى، والأمر من الأدنى إلى الأعلى رجاء في عرف البلاغيين، وفيها مقابلات طريفة كقوله - رضى الله عنه -: [اللهم إني غليظ فليتي، اللهم إني شحيح فسحني]، وهذه المقابلات الطريفة تكسب الكلام رونقا، وحسنا، وبهاء، وجمالا. والخطبة بعد ذلك جاءت سهلة الألفاظ، واضحة المعاني، جميلة التقسيم، رائعة القصد، سامية الغيات تومئ بقوة إلى ما أحدثته الثقافة الإسلامية من أثر جلي في الخطابة بكل ألوانها من خطابة دينية، أو اجتماعية، أو سياسية.

**ومن خطبة له أيضا - رضى الله عنه - بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، قال:**

"أيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت "أبى بن كعب" ومن أراد أن يسأل عن الفرائض، فليأت "زيد بن ثابت"، ومن أراد أن يسأل عن الفقه، فليأت "معاذ بن جبل"، ومن أراد أنى سأل عن المال فليأتنى، فإن الله جعلنى له خازناً وقاسماً، إني بادئ بأزواج رسول الله - ﷺ - فمعتيهم، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، أنا وأصحابي، بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فلا يلومنّ رجل إلا مناخ راحلته. إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي فابتليت بكم، وابتليت بى، وإن لن يحضرنى من أموركم شىء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فلئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكفن بهم<sup>(١)</sup>."

**وخطب أيضا، فقال بعد أن حمد الله، وأثنى عليه:**

أيها الناس، تعلموا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، واعلموا أنه لم يبلغ من حق مخلوق أن يطاع في معصية الخالق، ألا وإني أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة والى اليتيم، وإن استغيت عفت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، تغرم البهمة الأعرامية، القصم دون الخضم.

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج٤ ص١٢٩ وما بعدها ط دار الفكر.

الفرائض. الموارث. التنكيل. التعذيب.

## المعنى الإجمالى للخطبة :

ونرى الإمام العادل "عمر بن الخطاب" - رضى الله عنه - يقوم فى الناس خطيباً فيناديهم قائلاً: أيها الناس، تعلموا القرآن تعرفوا به، ويرمز إليكم بالبنان تكريمة وإجلالاً لكتاب الله الذى تعلمتموه، وتلوتموه، واعملوا بما جاء فيه من أوامر، ونواه؛ تكونوا بذلك من أهل القرآن والذين يشفع فيهم يوم القيامة، وليس لمخلوق طاعة فى معصية الخالق مهما سمت مكاتته، وعلا شأنه، وإنى أنزلت نفسى من مال الله سبحانه - خزينة بيت مال المسلمين - أو المال العام بلغة العصر الحديث - منزلة الوصى على مال الأيتام، إن كان غنياً عفّ، وإن كان فقيراً أكل منه بالمعروف، دون سرف أو ترف. وهو بذلك يومئ إلى قول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْرُدُوا عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ حَسِيبٌ ﴾<sup>(١)</sup>.

وهذا ديدن المسلم الخائف من الله عز وجل، وتلك طبيعته وهجّيره<sup>(\*)</sup>.

## وخطب أيضا فقال :

أيها الناس: "اتقوا الله فى سريرتكم وعلا نيتكم، وأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ولا تكونوا مثل قوم كانوا فى سفينة فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه، فنظر إليه أصحابه فمنعوه، فقال: هو موضعى، ولى أن أحكم فيه، فإن أخذوا على يده سلم وسلموا، وإن تركوه هلك وهلكوا معه، وهذا مثل ضربته لكم. رحمتنا الله وإياكم"<sup>(٢)</sup>.

## المعنى الإجمالى للخطبة :

وفى خطبته هذه - رضى الله عنه - يطالب الناس بتقوى الله فى السر والعلن،

(١) سورة النساء الآية رقم ٦.

(٢) ذاته ص ١٣١.

\* هجّيره: أى طبيعته.

وهى من وصايا الرسول - عليه الصلاة والسلام - حين قال: أو صانى ربى بتسع أو صيكم بها، ومنها "تقوى الله فى السر والعلن" وأن يكون صمتى فكرا ونطقى ذكرا، ونظرى عبدا... " كما طالبهم بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ولا يكون مثلهم كمثل القوم الذين استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فهمّ أحدهم بخرق السفينة ليحصل على الماء، حتى لا يؤذى غيره فى المرور بالماء من أعلى إلى أسفل، فلو أنهم تركوه يفعل ذلك، لهلك وهلكوا، ولو منعه بالقوة، لنجا ونجوا جميعا، وفى هذا دليل على أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن المصلحة العامة مقدّمة على المصالح الخاصّة، ومحاربة الفساد والمفسدين، ولو أدّى الأمر إلى استخدام القوة معهم، حرصا على نجات الجميع من الهلاك، وحماية المجتمع الإسلامى من الفساد ولذلك كانت الأمة المحمدية من خير الأمم لهذا المعنى. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

فالخيرية للأمة المحمدية لقيامها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد الإيمان بالله سبحانه.

وخطب - رضى الله عنه - عام الرّمادة بالعباس رحمه الله، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم قال:

أيها الناس، استغفورا ربكم إنه كان غفّارا، اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك، اللهم إنا نتقرب إليك بعمّ نبيك وبقيه آبائه، وكبار رجله، فإنك تقول وقولك الحق: "وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا" فحفظتهما لصالح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك فى عمّه، اللهم اغفر لنا إنك كنت غفّاراً، اللهم أنت الرّاعى، لا تهمل الضّالة، ولا تدع الكسيرة بمضيعة، اللهم

(١) سورة آل عمران الآية رقم: ١١٠.

قد ضرع الصَّغير، ورقَّ الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السرِّ وأخفى، اللهمَّ أغثهم بغياثك، قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون، فما برحوا حتى علَّقوا الحذاء، ولقصوا المآزر، وطفق الناس بالباس يقولون: "هنيئًا لك يا ساقى الحرمين" (١).

**خطبة لعثمان بن عفان - رضى الله عنه:-**

ولما ولى عثمان بن عفان قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وتشهَّد، ثم أرتج عليه، فقال: "أيها الناس، إن أول كلِّ مركب صعب وإن أعش فستايتكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسرا" (٢).

**المعنى:**

وفي الخطبة السابقة لسيدنا عثمان بن عفان - رضى الله عنه - حين ولى أمر المسلمين فقام فيهم خطيباً، ثم أرتج عليه أى تلعثم ولم يستطع مواصلة الحديث، بيد أنه بكلماته الموجزة استطاع أن يوجِّه الناس إلى أمر جَلَل، وهو أن كلَّ ولاية، بل كل أمر في بدايته صعب على صاحبه، فهو في موضع اختبار وامتحان عسير، وإن أعش فسأوجهكم وأرشدكم من خلال الخطب التى سألقياها عليكم، وسيجعل الله سبحانه من بعد عسر يسرا، وبعد كلِّ ضيق فرجا، ومن كلِّ مأزق مخرجا.

**ومن خطبة أخرى لعثمان بن عفان - رضى الله عنه:**

يقول فيها: "إن لكل شئ آفة، ولكل نعمة عاهة. في هذا الدين غيَّابون ظانون، يظهر لكم ماتحبون ويسرون ما تكرهون، ويقولون لكم وتقولون، طعام مثل التَّعام، يتبعون أول ناعق. أحبُّ أمورهم إليهم النازح. لقد أقررتم لابن الخطاب أكثر مما نقتمتم علىَّ ولكن وقمكم، وقمعكم وزجركم زجر النعامه المخزومة، وإنى والله

(١) ذاته ص ١٢١، ١٣٢.

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ١٣٣.

لأقرب ناصرًا، وأعزّ نفرا وأقمن إن قلت "هلمّ" أن تجاب دعوتي من غيرى هل  
تفقدون من حقوقكم شيئًا؟ فهالى لا أفعل فى الحق ما أشاء؟ إذن فلم كنت إمامًا؟

### التحليل والدراسة:

(١) مناد يرفع صوته - المسافر المنتهى - حقدتم: قهركم وأذلكم، المربوطة فى  
أنفها، أجدر، الناهة، الآفة يقال: عية الزرع فهو معيوه مختار الصحاح مادة: ٤ و ٥:  
وقمكم: الوقم، جذبك العنان، وقم الدابة، جذب عنانها لتكفّ، ووقم الرجل وقما  
ووقمه: أذله وقهره، وقيل: رده أقبح الرد وأنشد الجوهري:

به أقم الشجاع له حصاصٌ من القطمين إذ فر اللسيوث<sup>(١)</sup>

وهلم. بمعنى: أقبل. وهذه الكلمة مركبة من: ها: التى للتنبية، ومن [لمّ]،  
ولكنها قد استعملت استعمال الكلمة المفردة البسيطة، وزعم سيويه أن "هلمّ"  
هى [ها] ضمت إليها [لمّ] وجعلنا كالقلم الواحدة وأكثر اللغات أن يقال: هلم  
للوحد والاثنين والجماعة وبذلك نزل القرآن الكريم "هلمّ إلينا" و "هلمّ  
شهداءكم" وقال سيويه "هلمّ فى لغة أهل الحجاز يكون للواحد والاثنين والجمع  
والذكر والأنثى بلفظ واحد<sup>(٢)</sup>.

ومن خطبة له أيضا - رضى الله عنه:

### لدى البيعة

لما بويع عثمان بن عفان - رضى الله عنه - بالخلافة، حمد الله وأثنى عليه ثم قال:  
أما بعد. فإننى قد حملت، وقد قبلت، ألا وإنى متبع، ولست بمبتدع<sup>(٣)</sup>. ألا وإنى لكم

(١) لسان العرب لابن منظور. باب الواو. والكلمة هذه فى المجلد السادس ص ٤٩٠ ط دار المعارف  
بالقاهرة.

(٢) ذاته باب الهاء ص ٤٦٩.

(٣) لست بمبتدع: لست بمخترع شيئاً من عندى وإنما متبع لسنن المهديين من قبل الذين عملوا بشرع  
الله.

على بعد كتاب الله وسنة نبيه - ﷺ - ثلاثاً. أتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملاء، والكف<sup>(١)</sup> فيما استوجبتم، ألا وإن الدنيا خضرة<sup>(٢)</sup> قد شبّهت إلى الناس، فلا تركنوا<sup>(٣)</sup> إلى الدنيا، ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها.

### المعنى الإجمالى للخطبة:

يقول الإمام عثمان بن عفان - رضى الله عنه - حين ولى الخلافة:

إنى حملت تبعات المسلمين، وقبلت هذه المهمة الشاقة، وإنى فيها متبع سنن الخلفاء من قبلى، ولست مبتدعاً لشيء من تلقاء نفسى، ولكن على أتباع المنهج وهو كتاب الله وسنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - ثم ما أجمعتم عليه وسننتموه قبلى من سنن الخير والفلاح، ثم نرى الخليفة "عثمان" - رضى الله عنه - يحذر الرعية من فتن الدنيا، فيقول لهم: لا تركنوا إليها، حيث إن الدنيا حلوة خضرة، خداعة غرارة، ولا تثقوا بها، فهى ليس بثقة، واعلموا أنها لا تترك إلا من تركها، وتشغل كل من شغل بها. يقول الشاعر فى هذا المعنى:

هى الدنيا إذا اكتملت      وطاب نعيمها قتلت  
فلا تفرح بلذتها      فباللذات قد شغلت  
وكن منها على حذر      وخف منها إذا اعتدلت  
ولا يغررك زخرفها      فكم من نعمة سئلت<sup>(٤)</sup>

(١) الكف: المنع.

(٢) خضرة: حلوة تغر الناس وتخدعهم بزينتها.

(٣) لا تركنوا: لا تطمئنوا.

(٤) الطالع السعيد فى ذكر الأفاضل والنجباء من أبناء الصعید لمؤلفه كمال الدين بن جعفر بن ثعلب

الأدقوى ص ٢٦٥ ط الدار المصرية لكتاب أكتوبر سنة ١٩٦٦ م.

## خطبة للإمام على بن أبي طالب - رضى الله عنه - في الجهاد في سبيل الله

لما أغار "سفيان بن عوف الأزدي" على الأنبار، في خلافة علي - رضى الله عنه -  
وعليها "ابن حسان البكري" فقتله، وأزال تلك الخيل عن مسالحها، فخرج على  
رضى الله عنه حتى جلس على باب السدّة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه ألبسه الله ثوب الذل،  
وشمّلة البلاء، وألزمه الصغار، وسامه الخف، ومنعه النصف، ألا وإني دعوتكم إلى  
قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم،  
فوالله ما غزى قوم قطّ في عُقر دارهم إلاّ ذلّوا. فتواكلتهم وتخاذلتهم وثقل عليكم  
قولي فاتخذتموه وراءكم ظهرياً، حتى شنت عليكم الغارات. وهذا أخو غامد قد  
بلغت خيله الأنبار، وقتل "ابن حسان البكري" وأزال خيلكم عن مسالحها، وقتل  
منكم رجالاً صالحين، وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة  
والأخرى المعاهدة، فينزِع حجلها وقلبها ورعاها، ثم انصرفوا وافرین ما كلم رجل  
منهم، فلو أنّ رجلاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان عندي ملوماً، بل كان به  
عندي جديراً، فواعجباً من جدّ هؤلاء في باطلهم وفشلكم عن حقّكم، فقبّحاً لكم  
وترحاً حين صرتم غرضاً يُرمى، يغار عليكم ولا تُغيرون، وتفرون ولا تغزون،  
ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالمسير إليهم في أيام الحرّ، قلت: حمارة القيظ،  
أمهلنا حتى ينسلخ عنّا الحرّ! وإذا أمرتكم بالمسير إليهم ضحى في الشتاء، قلت:

[صِيَارَةُ الْقُرِّ] أمهلنا حتى ينسلخ عنا هذا القرّ! كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ فأنتم والله من السيف أقرّ! يا أشباه الرجال ولا رجال! ويا أحلام أطفال وعقول ربّات الحجال! وددت أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم وأنى لم أركم ولم أعرفكم! معرفة والله جرّت وهناً! [لقد ملأتم قلبي قيحاً] وورّيتم والله صدرى غيظاً، وجرّعتمونى فى الموت أنفاساً وأفسدتم علىّ وأبى بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إنّ ابن أبى طالب شجاع، ولكن لا علم له بالحرب! لله أبوهم! وهل منهم أحدٌ أشدّها مراساً وأطول تجربة منّى! لقد مارستها وأنا ابن عشرين، فها أنذا الآن قد نيّقت على السّتين، ولكن لا أرى لمن لا يطاع<sup>(١)</sup>!

"ووريتم" أصل "الوزى" قيح يكون فى الجوف، ووريته وزياً أصبت رثته والمعنى ملأتم صدرى غيظاً<sup>(٢)</sup>.

ومن خطبة له أيضاً - رضى الله عنه - قام فيهم فقال:

"أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم! كلامكم يوهى الصّم الصّلاب، وفعلكم يطمع فيكم عدوّكم، تقولون فى المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتُم [حيدى] حياذ ما عرت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب قاساكم، أعاليل بأباطيل وسألتمونى التأخير، دفاع الدّين الممطول، ألا، لا يدفع الضّيم الدّليل، ولا يترك الحقّ إلّا بالجدّ. أى دار بعد داركم. نمنعون؟ أم مع أى إمام بعدى تقاتلون؟ المغرور والله من غرّتموه، ومن فاز بكم فاز بالسّهم الأخبى! أصبحت والله لا أصدّق قولكم، ولا أطمع فى نُصركم، فرّق الله بينى وبينكم، وأعقبنى بكم من هو خير لى منكم! وددت والله أن لى بكلّ عشرة منكم رجلاً من بنى فراس بن غنم، ضرف الدّينار بالدّرهم"<sup>(٣)</sup>!

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ج ٤ ص ١٣٦ وما بعدها.

(٢) اللسان ص ٤٨٢١ باب الواو.

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٣٧ وما بعدها.

**ومن خطبة له أيضا. رضى الله عنه. فى استنفار أصحابه للقتال:**

قال - رضى الله عنه - بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"عباد الله مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا<sup>(١)</sup> فى سبيل الله أثاقلتم<sup>(٢)</sup> إلى الأرض؟ أراضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا؟ وبالذل والهوان من العزّ خلفا؟ الله أنتم تكادون ولا تكيدون، وتنقص أطرافكم فلا تمتعضون<sup>(٣)</sup>، ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون، وإنّ أخا الحرب اليقظان ذو العقل، وبات لذل من وادع، وغلب المتخاذلون، والمغلوب مقهور ومسلوب.

أما بعد: فإن لى عليكم حقًا، وإن لكم على حقًا، فأما حقكم علىّ فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوفير فيئكم<sup>(٤)</sup> عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا، وأما حقى عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصح لى فى المغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم. فإن يرد الله خيرا تنزعوا<sup>(٥)</sup> عما أكره، وترجعوا إلى ما أحبّ، فتالوا ما تطلبون وتدركون ما تأملون".

### **المعنى الإجمالى للخطبة:**

عقيب مقتل الخليفة "عثمان بن عفان" - رضى الله عنه - نشب خلاف حاد بين الإمام "على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ومعاوية بن أبى سفيان على الخلافة، وكان "معاوية" يصبو إليها، ويخطط لها، تسانده قوة ضاربة تعضده وتؤازره.

فقام الإمام "على بن أبى طالب" - رضى الله عنه - خطيبا فى أصحابه ومؤيّد، يستنفرهم للقتال، ويحفزهم إلى حرب "معاوية" فيقول لهم: مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله تباطأتم، وتقاعستم، أراضيتم بنعيم الدنيا، وزخرفها الخداع

(١) تنفروا: تمضوا للقتال.

(٢) أثاقلتم: تباطأتم.

(٣) تمتعضون: تشمتزون.

(٤) فيئكم: عظائكم.

(٥) تنزعوا: تكفوا.

وبهرجها الكذب، وفضلتموها على الدار الآخرة، وهى الحيوان والحياة الدائمة الباقية، ذات النعيم الخالد المقيم، ورضيتم بحياة الهوان والذل والصغار، بدلاً من العزة والكرامة والشمم والإباء، ما الذى حدث لكم!!! يتعجب الإمام "على" من أمر هؤلاء القوم فيخاطبهم قائلاً: لقد بلغ بكم الخور والضعف أنكم تكادون ولا تكيدون، وتغضب أرضكم فلا تعبأون ولا تشمزون ولا تغضبون، وإن عدوكم بالمرصاد لكم، غير ساء عنكم، وأنتم عنه ساهون، وعن حربته ورد كيده غافلون، وكان من واجبكم اليقظة لعدوكم والحذر منه، فمن وطن نفسه على المواعدة لحقه الهوان، وشمله الذل، وأحاطت به الهزيمة، والمهزوم دوماً مقهور النفس مسلوب الحق. ثم يشرع الخطيب على -رضى الله عنه- فى تبيان ماله من حقوق على أصحابه، وما لهم عليه من واجبات وتلك شيمة الإمام العادل، فحقهم عليه إسداء النصيحة لهم، وتوفير الفيء، وأن يعلمهم ويؤدبهم، وحقه عليهم وفاؤهم له بالبيعة مع إسداء النصح له فى المشهد والمغيب، والاستجابة لدعوته حين يستنفرهم للقتال مع الطاعة لأمره والانقياد لرغبته، فإن يرد الله بهم خيراً كفوا عن التقاعس والخذلان، والتباطؤ فى القتال، ويرجعون إلى ما يجب من النهوض إلى مناجزة أعدائه، وبهذا العمل ينالون ما يطلبون ويدركون ما يؤملون، ويحققون ما يرغبون.

هذه الخطبة لمن عرف بالفصاحة والبلاغة، واللسن والقول الإمام "على بن أبى طالب" رضى الله عنه، فقد كان محدثاً بارعاً وخطيباً لسنناً لا يشق له غبار، كما كان رضى الله عنه فارساً مغواراً وبطلاً شجاعاً، وليس أدل على ذلك من مواقفه الشهيرة فى الإسلام منذ يفاعته، فهو الذى بارز "عمرو بن ودان" وهو غلام وغير ذلك كثير من المواقف البطولية التى وعها التاريخ له، بل لا يستطيع أن يطبق فمه عن تسجيلها والإشادة بها مع الإكبار والإجلال له وبشجاعته، ويكفيه شجاعة وفداية نومه فى مكان رسول الله -ﷺ- ليلة الهجرة.

ونراه -رضى الله عنه- فى خطبته هذه يميل إلى الدعة والهدوء، عازفاً عن العنف فى الأسلوب الذى خاطب أصحابه، جانحاً إلى إطلاق الأحكام، مع ضرب الأمثال

للاعتبار، مع الإتيان بطائفة من أقواله المأثورة، مستثيرا بها الهمم، ومحرضاً على القتال، موضحاً موقفهم من عدوهم، وموقف عدوهم منهم فهم ساهون، وخصومهم متيقظون. ثم نراه - رضى الله عنه - في ختام خطبته يبلغ من الهدوء أكمله، ومن اللين أجمله، ومن الرفق أزينه، يتجلى ذلك في تبيانه الحقوق الواجبة عليه حيالهم، وما يجب له عليهم من النهوض لمؤازرته ومجاهدة خصومه، مع السمع له والطاعة لأوامره. وقد انتظمت الخطبة أساليب متعددة مثل قوله: مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله أثاقلتم؟" فهو استفهام إنكارى تعجّبي، ينكر عليهم تحاذلهم وغفلتهم عما يديره لهم أعداؤهم متعجباً من حالهم هذه. وكذلك قوله: "أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة" وكذلك التعجب في قوله "الله أنتم" والأسلوب الخبرى الكامن في قوله "إن لى عليكم حقاً وجاء مؤكداً "بإن" دالاً على التصح والإرشاد. وكذلك قوله "وإن لكم على حقاً" كما أننا نرى المقابلة في قوله: "الحياة الدنيا، من الآخرة" "وتكادون، ولا تكيدون" "ولا ينام عنكم، وأنتم في غفلة ساهون" وجميع هذه الأساليب تكسو الكلام ثوباً قشيباً، وتزيده روعة وبهاء، وحسناً وجمالاً. والخطيب في خطبته هذه متأثر بالأسلوب القرآنى، فقد قبس من معانيه، واغترف من صورته وألفاظه. نرى ذلك في قوله: مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض" وقد قبس ذلك من قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ءَأَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾<sup>(١)</sup>

وكذلك الألفاظ. مثل: "وأنتم في غفلة ساهون" فهذا اللفظ مقبوس من القرآن الكريم وهو قوله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) سورة التوبة الآية رقم: ٣٨.

(٢) سورة الماعون الآية رقم: [٤، ٥].

"والمغلوب مقهور ومسلوب" فهو مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرَ﴾<sup>(١)</sup>

كما نرى الألوان البلاغية التي تعجّ بها الخطبة كالسجع القصير المحبب إلى النفس والذي يجلب لبّ السامع، ويملك عليه أقطار نفسه مثل قوله: "نالوا ما تطلبون، وتدركون ما تأملون و: "فلا تمتعضون" وأنتم في غفلة ساهون" والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين أمركم" فاتفاق الفواصل في الحرف الأخير يكسب الكلام رونقا وبهاء، ويضفي عليه حسناً وجمالاً، وهو ما يسمّيه البلاغيون بالسجع، وكذلك كان على رضى الله عنه متأثراً بالقرآن الكريم في جميع خطبه وسيظل القرآن الكريم المعين الذي لا ينضب والينبوع الثرى الذي يغترف منه الخطباء، والأدباء، والعلماء والبلغاء. والخطبة تعدّ أنموذجاً جلياً للخطابة في العصر الإسلامى لما حوته من يسر في العبارة، وحرص على انتفاء الألفاظ، وتخير التراكيب، مع الإيجاز غير المخلّ في الأسلوب، وقصر الفقرات، ذات الجرس القوى، والمعانى الموحية. ومما زادها جمالاً وروعة ما حوته الخطبة من تنوع من الأسلوب من بين تعجب واستفهام وإنكار، وقوة العاطفة، وتدفق المشاعر. وتلك خصائص الأسلوب الخطابى المتوخى التأثير فى السامعين، وتحريك مشاعرهم وحفز هممهم. ولا غرو، فخطب الإمام على - رضى الله عنه - وكلماته تعد بحق قمة سامقة، وروضة أنف، فهو الخطيب الذى لا يبارى فى ذرابة لسانه، وقوة بيانه، وروعة أدائه.

(١) سورة القمر الآية رقم: ١٠.

## "توقيعات الخلفاء الراشدين"

عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

كتب إليه سعد بن أبي وقاص في بيان بينه، فوَقَّع في أسفل كتابه: ابن ما يُكْنُكَ من الهواجر وأذى المطر.

ووقع إلى عمرو بن العاص: كن لرعتك كما تحب أن يكون لك أميرك.

عثمان بن عفان (رضى الله عنه)

وقع في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بوجء أعناقهم: "فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعلمون".

ووقع في قصة رجل شكَا عيلة عليه: قد أمرنا لك بما يقيمك، وليس في مال الله فضل للمسرف.

على بن أبي طالب (كرم الله وجهه) <sup>(١)</sup>

وَوَقَّعَ إلى طلحة بن عبيد الله: في بيته يُؤْتَى الحكم.

وَوَقَّعَ في كتاب جاءه من الحسن بن علي - رضى الله عنه: رأى الشيخ خير من مشهد الغلام.

وَوَقَّعَ في كتاب سلمان الفارسي - وسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة؟-: يحاسبون كما يرزقون.

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق محمد سعيد العريان ج ٤ ص ٢٥٦ - دار الفكر بدون تاريخ.

ووقع في كتاب الحصين بن المنذر إليه يذكر أن السيف قد أكثر في ربيعة: بقية السيف أنمى عددا.

وفي كتاب جاءه من الأشتر النخعي فيه بعض ما يكره: من لك بأخيك كله؟  
وفي كتاب صعصعة بن صوحان يسأله في شيء: قيمة كل امرئ ما يحسن.

### معاوية بن أبي سفيان<sup>(١)</sup>

كتب إليه عبد الله بن عامر في أمر عاتبه فيه، فوَقَّع في أسفل كتابه بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت حبيب في الإسلام، فأنت تراه وفي كتاب زياد يخبره بطعن عبد الله بن عباس في خلافته: إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا في الجاهلية في مسلخ واحد، وذلك حلف لا يحله سوء أدبك.

وكتب إليه ربيعة بن عسل اليربوعي يسأله أن يعينه في بناء داره بالبصرة بإثني عشر ألف جذع: أدارك في البصرة، أم البصرة في دارك؟

### يزيد بن معاوية

وَقَّع في كتاب عبد الله بن جعفر إليه يستميحه لرجال من خاصته: احكم لهم بآمالهم إلى منتهى آجالهم - فحكم (لهم) بتسعمائة ألف: فأجازها.

وكتب إليه مسلم بن عقبة المري بالذي صنع أهل الحرّة، فوَقَّع في أسفل كتابه: "فلا تأس على القوم الفاسقين".

وفي كتاب مسلم بن زياد عامله على خرسان، وقد استبطأه في الخراج: قليل العتاب يُحْكَم مرائر الأسباب، وكثيرة يقطع أواخى الانتساب.

ووَقَّع إلى عبد الرحمن بن زياد وهو عامله على خرسان: القرابة واشجة، والأفعال متباينة؛ فخذ لرحمك من فعلك.

(١) ذاته ص ٢٥٧.

وإلى عبید الله بن زیاد: أنت أحد أعضاء ابن عمك، فاحرص أن تكون كلَّها.

### عبد الملك بن مروان<sup>(١)</sup>

وَقَعَ فِي كِتَابِ أَتَاهُ مِنَ الْحِجَاكِ (يَشْكُو إِلَيْهِ نَفْرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَيَغْرِيهِ بِهِمْ) جَنْبَتِي  
دَمَاءَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ، فَلَيْسَ فِيهَا شِفَاءٌ مِنَ الطَّلَبِ.

وَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحِجَاكِ يَخْبِرُهُ بِسُوءِ طَاعَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمَا يُقَاسَى مِنْهُمْ وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي  
قَتْلِ أَشْرَافِهِمْ، فَوَقَّعَ لَهُ: إِنَّ مَنْ يُؤْمِنُ السَّائِسَ أَنْ يَأْتَلِفَ بِهِ الْمُخْتَلِفُونَ، وَمَنْ سُؤْمَهُ أَنْ  
يُخْتَلِفَ بِهِ الْمُؤْتَلِفُونَ.

وَفِي كِتَابِ الْحِجَاكِ يَخْبِرُهُ بِقُوَّةِ ابْنِ الْأَشْعَثِ: بَضْعُكَ قَوِيٌّ، وَبُخْرُوكَ طَلَعُ.  
وَوَقَّعَ فِي كِتَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ:

فَمَالُ بِالْ مَنْ أَسْعَى لِأَجْبَرِ عَظْمَهُ      حِفَاظًا وَيُنَوِي مِنْ سَفَاهَتِهِ كَسْرِي؟

وَوَقَّعَ أَيْضًا فِي كِتَابِ:

كَيْفَ يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَمَا      شَمِلَ الرَّأْسَ مَشِيْبَ وَصَلَعَ

### الوليد بن عبد الملك<sup>(٢)</sup>

كَتَبَ إِلَيْهِ الْحِجَاكِ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرِقَ فِيهَا خَلْفٌ لَهُ عَبْدِ الْمَلِكِ، يَنْكُرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ  
وَيَعْرِفُهُ أَنَّهُ عَلَى غَيْرِ صَوَابٍ، فَوَقَعَ فِي كِتَابِهِ: لِأَجْمَعَنَّ الْمَالَ جَمْعَ مَنْ يَعِيشُ أَبَدًا،  
وَلَأَفَرِّقَنَّه تَفْرِيقَ مَنْ يَمُوتُ غَدًا.

وَوَقَعَ إِلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، قَدْ رَأَى بَكَ اللَّهُ بَكَ الدَّاءِ، وَأَوْذَمَ بِكَ السَّقَاءِ.

سَيْلِمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ

كَتَبَ قَتِيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى سَلِيْمَانَ يَتَهَدَّدُهُ بِالْخَلْعِ، فَوَقَّعَ فِي كِتَابِهِ:

(١) ذاته ج ٤ ص ٢٥٨.

(٢) ذاته ج ٤ ص ٢٥٨.

زَعَمَ الفرزدق أن سيقْتل مَرَبَعاً أبشِر بطول سلامتِ يا مَرَبَعُ

وَوَقَّعَ في كتابه أيضاً: العاقبة للمتقين.

وإلى قتيبة أيضاً جواب وعده: وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً.

**عمر بن عبد العزيز<sup>(١)</sup>**

كتب بعض العمال إليه يستأذنه في مرمة مدينته، فوقَّع أسفل كتابه: ابنها بالعدل  
ونقَّ طرُقها من الظلم.

وإلى بعض عماله في مثل ذلك: حصَّنها ونفَّسك بتقوى الله. وإلى رجل ولاه  
الصدقات، وكان دميماً، فعدل وأحسن: ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم  
الله خيراً.

وكتب إليه صاحب العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها، فوقَّع له: أرض لهم ما  
ترضى لنفسك، وخذ بجرائمهم بعد ذلك.

وإلى عدى بن أرطاة في أمر عاتبه عليه: إن آخر آية أنزلت "واتقوا يوماً ترجعون  
فيه إلى الله".

وإلى عامله على الكوفة - وكتب إليه أنه فعل في أمرٍ كما فعل عمر بن الخطاب -:  
"أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده".

وإلى الوليد بن عبد الملك - وعمرُ عامله على المدينة - فوقَّع في كتابه: الله أعلم  
أنك لست أول خليفة تموت.

وأناه كتاب عدى يخبره بسوء طاعة أهل الكوفة، فوقَّع في كتابه: لا تطلب طاعة  
من خذل عليّاً، وكان إماماً مرضياً - وإلى عامله بالمدينة وسأله أن يُعْطيه موضعاً  
يبنيه، فوقَّع: كن من الموت على حذر. وفي قصة متظلم: العدل أمامك. وفي رقعة

(١) ذاته ج ٤ ص ٢٥٩.

محبوس: تُبُّ تُطَلَّق. وفي رقعة رجل قتل: كتاب الله بيني وبينك. وفي رقعة متنصّح: لو ذكرت الموت شغلك عن نصيحتك. وفي رقعة رجل شكّا أهل بيته: أنتما في الحق سيّان. وفي رقعة امرأة حُبِس زوجها: الحق حَبِسَه وفي رقعة رجل تظلم من ابنه: إن لم أنصفك منه فأنا ظلمتُك.

### يزيد بن عبد الملك<sup>(١)</sup>

وقع إلى صاحب خراسان: لا يغرنك حسنُ رأى، فإنما تفسده عشرة، وإلى صاحب المدينة: عشرت فاستقل.

وفي قصة متظلم: "سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون" وفي قصة متظلم شكّا بعض أهل بيته: ما كان عليك لو صفحت عنه واستوصلتني.

### هشام بن عبد الملك<sup>(٢)</sup>

في قصة متظلم: أذاك الغوث إن كنت صادقاً، وحلّ بك النكال إن كنت كاذباً؛ فتقدم أو تأخر. وفي قصة قوم شكوا أميرهم: إن صح ما ادعيتم عليه عزلناه وعاقبناه - وإلى صاحب خراسان حين أمره بمحاربة الترك: احذر ليالى البيات. وإلى صاحب المدينة وكتب يخبره بوثوب أبناء الأنصار: احفظ فيهم رسول الله - ﷺ - وهبهم له. وقّع في رقعة محبوس لزمه الحدّ: تدلّ بحدك الكتاب. ووقّع في قصة رجل شكّا إليه الحاجة، وكثرة العيال، وذكر أن له حرمة: لعيالك في بيت مال المسلمين سهم، ولك بحرمتك منّا مثلاه. وإلى عامله على العراق في أمر الخوارج: صَع سيفك في كلاب النار، وتقرب إلى الله بقتل الكفار. وإلى جماعة يشكون تعدى عاملهم عليهم لنفوضكم في خصمكم دونكم.

وفي كتاب عامله يخبره فيه بقلة الأمطار في بلده: مُرهم بالاستغفار وإلى سهل بن سيار: خَفِ الله وإمامك، فإنه يأخذك عند أول زكاة.

(١) ذاته ج ٤ ص ٢٦٠.

(٢) ذاته.

## يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

وَقَعَ إِلَى مَرُوان (بن محمد): أراك تُقَدِّم رِجْلاً، وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت.

وإلى صاحب خراسان في المسوِّدة: نجم أمر أنت عنه نائم وما أراك منه أو مني بسالم.

مروان بن محمد<sup>(١)</sup>

كتب إلى نصر بن سيار في أمر أبي مسلم: تحوُّل الظاهر يدل على ضعف الباطن، والله المستعان.

ووقع إلى ابن هبيرة أمير خراسان: الأمر مضطرب، وأنت نائم، وأنا ساهر:

وإلى هوثرثة بن سهيل حين وجهه إلى قحطبة: كن من بيات المارقة على حذر.

ووقع حين أتاه غرق قحطبة وانهمز ابن هبيرة: هذا والله الإدبار، وإلا فمن رأى ميتاً هزماً حياً؟

وفي جواب أبيات نصر بن سيار إذا كتب إليه: أرى خلف الرماد وميض جهر. ويوشك أن يكون له ضرام.

الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثؤلول.

فكتب نصر: الثؤلول قد امتدت أعضاؤه، وعظمت نكايته - فوقع إليه: يداك أوكتا وفوك نفخ.

(١) ذاته ج ٤ ص ٢٦١.